موجز في التّفسير

سورة النَّجم

إعداد: سليمان بيضون

* سورة (النّجم) هي السُّورة الثّالثة والخَمسون في ترتيب سُوَر المُصحف الشّريف، نزلتْ بعد سورة (التّوحيد).
* آياتُها اثنتان وستّون، وهي مكّيّة، تُورِثُ المداومةُ على قراءتها محبّةَ النّاس.
* سُمِّيتْ بسورة (النّجم) لابتدائها بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ..﴾.
* إحدى سُوَر العزائم الأربع، عن الإمام الصّادق عليه السّلام: «إنّ العَزائِمَ أَرْبَعٌ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذي خَلَقَ، وَالنَّجْمِ، وَتَنْزِيلِ السَّجْدَة، وَحَم السَّجْدَة».

قال العلّامة الطّباطبائيّ في (تفسير الميزان): «في تفسير القمّيّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، قال: «النّجم رسولُ الله ﷺ. ﴿..إِذَا هَوَىٰ﴾: لمّا أُسْرِيَ به إلى السّماء وهو في الهواء..». أقول: وروى تسميتَه صلّى الله عليه وآله وسلّم بالنّجم بإسناده عن أبيه، عن الحسين بن خالد، عن الرّضا عليه السلام، وهو من البطن».

(المصدر: ج ١٩)

وفي (تحقيق كلمات القرآن الكريم) للشّيخ حسن المصطفوي أنّ معنى «النّجم» في الآية: «..هو نفسُ رسول الله ﷺ الهابط من المحلّ الأعلى والمقام الأسنى، ومن مرتبة الحقّ في الحقّ إلى جانب الخلق، بالرّسالة إليهم وهدايتِهم وسَوقِهم إلى الحقّ..».

مضامين سورة (النّجم)

هدفُ سورة النّجم المباركة هو التّذكير بالأصول الثّلاثة؛ وحدانيّتُه تعالى في ربوبيّته، والمَعاد، والنُّبوّة. وهي في ذلك تبدأ بالنّبوّة، فتصدّقُ الوحيَ إلى النّبيّ ﷺ، وتَصِفُه، ثمّ تتعرّضُ للوحدانيّة، فتنفي الأوثانَ والشّركاء أبلغَ النّفي، ثمّ تَصِفُ انتهاءَ الخَلْق، وتنسبُ إليه تَعالى التّدبيرَ؛ من إحياء، وإماتة، وإضحاك، وإبكاء، وإغناء، وإقناء، وإهلاك، وتعذيب، ودعوة، وإنذار. وتختمُ الكلامَ بالإشارة إلى المَعاد، والأمر بالسّجدة والعبادة.

(تفسير الميزان، للعلّامة الطّباطبائيّ)

ويُمكن تقسيم محتوى هذه السّورة إلى سبعة أقسام:

١) بداية السّورة، وهي تتحدّث عن حقيقة الوحي، واتّصال النّبيّ ﷺ مباشرةً بمُنزِل الوحي «جبريل عليه السّلام».

٢) في القِسم الثّاني يجري الكلام على معراج الرّسول ﷺ بعبارات موجزة وغزيرة المعنى.

٣) ثمّ يجري الكلام عن خرافات المشركين، وعبادة الملائكة، ويُعنّفُ هذا القسم الكفّارَ، ويحذّرهم من عبادة الأوثان.

٤) يفتح القرآنُ سبيلَ التّوبة بوجه المُنحرفين وعامّةِ المُذنبين، ويؤمّلُهم بمغفرة الله الواسعة، ويؤكّد أنّ كُلّاً مسؤولٌ عن عمله.

٥) إكمالاً للأهداف المتقدّمة، يأتي القِسم الخامس ليُبيِّنَ جوانبَ من مسألة المعاد، ويقيم دليلاً واضحاً على هذه المسألة بما هو موجودٌ في النّشأة الأولى، أي الدّنيا.

٦) إشاراتٌ إلى العواقب المؤلمة للأُمَم التي اتّخذت موقف العداوة والمعاندة للحقّ، كالذي حدث لقوم ثمود، وعاد، وغيرهم.

٧) تختم هذه السّورة بالأمر بالسّجود لله تعالى وعبادتِه.

(تفسير الأمثل)

ثواب تلاوتها

* عن النّبيّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سورَةَ النَّجْمِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَناتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ وَمَنْ جَحَدَ بِهِ».

(تفسير مجمع البيان)

* عن الإمام الصّادق عليه السلام: «مَنْ كانَ يُدْمِنُ قِراءَةَ (وَالنَّجْمِ) في كُلِّ يَوْمٍ، أَوْ في كُلِّ لَيْلَةٍ، عاشَ مَحْموداً بَيْنَ النّاسِ، وَكانَ مَغْفوراً لَهُ، وَكانَ مُحَبَّباً بَيْنَ النّاسِ».

(ثواب الأعمال)

تفسيرُ آياتٍ منها

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ الآيات: ١-٤.

الإمام الباقر عليه السلام: «ما ضَلَّ [صاحبكم] في عَلِيٍّ وَما غَوَى، وَما يَنْطِقُ فيهِ عَنِ الهَوَى، وَما كانَ قالَ فيهِ إلّا بِالوَحْيِ الذي أُوحِيَ إِلَيْهِ».

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ الآيتان:٨-٩.

الإمام الكاظم عليه السلام: «..فَلَمّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَكانَ مِنْ رَبِّهِ كَقابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى، رُفِعَ لَهُ حِجابٌ مِنْ حُجُبِهِ، فَكَبَّرَ رَسولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَجَعَلَ يَقولُ الكَلِماتِ الّتي تُقال في الافْتِتاحِ، فَلَمّا رُفِعَ لَهُ الثّاني كَبَّرَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتّى بَلَغَ سَبْعَةَ حُجُبٍ وَكَبَّرَ سَبْعَ تَكْبيراتٍ، فَلِذَلِكَ العِلَّةِ تُكَبِّرُ للافْتِتاحِ في الصَّلاةِ سَبْعَ تَكْبيراتٍ...».

قوله تعالى: ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ الآية:١٤.

* عن الإمام الحسين عليه السلام، أنّ يهوديّاً من يهود الشّام وأحبارهم قالَ لأمير المؤمنين عليه السلام: «.. فَإِنَّ موسى ناجاهُ اللهُ تَعالى عَلى طورِ سَيْناءَ. قالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلامُ: لَقَدْ كانَ كَذَلِكَ، وَلَقَدْ أَوْحَى اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، إِلى مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى، فَمَقامُهُ في السَّماءِ مَحْمودٌ، وَعِنْدَ مُنْتَهى العَرْشِ مَذْكورٌ...».

* الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّما سُمِّيَتْ سِدْرَةَ الْمُنْتَهى لِأَنَّ أَعْمالَ أَهْلِ الأَرْضِ تَصْعَدُ بِها المَلائِكَةُ الحَفَظَةُ إِلى مَحَلِّ السِّدْرَةِ، وَالحَفَظَةُ البَرَرَةُ دونَ السِّدْرَةِ يَكْتُبونَ ما يُرْفَعُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْمالِ العِبادِ في الأَرْضِ..».

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ..﴾ الآية:٣٢.

الإمام الصّادق عليه السلام: «الفَواحِشُ: الزِّنا، وَالسَّرِقَةُ. وَاللَّمَمُ: الرَّجُلُ يَلُمُّ بِالذَّنْبِ فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْهُ».

قوله تعالى: ﴿..فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ الآية:٣٢.

سُئل الإمام الصّادق عليه السلام: هل يجوز أن يُزكّي المرء نفسه؟ قال: «نَعَمْ، إِذا اضْطُرَّ إِلَيْهِ، أَما سَمِعْتَ قَوْلَ يوسُفَ: ﴿..ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ يوسف:٥٥، وَقَوْلَ العَبْدِ الصّالِحِ: ﴿..وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ الأعراف:٦٨».

قوله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ الآية:٣٧.

عن الإمام الباقر عليه السلام، في تفسير هذه الآية، أنّ النّبيّ إبراهيم عليه السلام كان إذا أصبحَ قال: «..أَصْبَحْتُ وَرَبِّي مَحْمُودٌ، أَصْبَحْتُ لا أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً وَلا أَدْعُو مَعَهُ إِلَهاً وَلا أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ وَلِيّاً - ثَلاثاً - وَإِذا أَمْسى قالَها ثَلاثاً..».

قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ الآيتان:٣٩-٤٠.

* رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذا غَلَبَهُ ضَعْفُ الكِبَرِ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المَلَكَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ في حالَتِهِ تِلْكَ، مِثْلَ ما كانَ يَعْمَلُ وَهُوَ شابٌّ نَشيطٌ صَحيحٌ، وَمِثْلَ ذَلِكَ إِذا مَرِضَ، وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً يَكْتُبُ لَهُ في سَقَمِهِ ما كانَ يَعْمَلُ مِنَ الخَيْرِ في صِحَّتِهِ حَتّى يَرْفَعَهُ اللهُ وَيَقْبِضَهُ، وَكَذَلِكَ الكافِرُ إِذا اشْتَغَلَ بِسَقَمٍ في جَسَدِهِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ ما كانَ يَعْمَلُ مِنْ شَرٍّ في صِحَّتِهِ».

* الإمام الصّادق عليه السلام: «لَيْسَ يَتْبَعُ الرَّجُلَ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنَ الأَجْرِ إِلّا ثَلاثُ خِصالٍ: صَدَقَةٌ أَجْراها في حَياتِهِ فَهِيَ تَجْري بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ صَدَقَةً مَوْقوفَةً لا تُوَرَّثُ، وَسُنَّةُ هُدًى سَنَّها وَكانَ يَعْمَلُ بِها وَعَمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ غَيْرُهُ، وَوَلَدٌ صالِحٌ يَسْتَغْفِرُ لَهُ».

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ الآية:٤٨.

أمير المؤمنين عليه السلام: «أَغْنَى كُلَّ إِنْسانٍ بِمَعيشَتِهِ، وَأَرْضاهُ بِكَسْبِ يَدِهِ».

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ الآية:٥٦.

الإمام الصّادق عليه السلام: «يَعْني مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، حَيْثُ دَعاهُمْ إِلَى الإِقْرارِ بِاللهِ في الذَّرِّ الأَوَّلِ».

(الشّيخ الحويزيّ، تفسير نور الثّقلين)

لَيْسَ يَتْبَعُ الرَّجُلَ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنَ الأَجْرِ إِلّا ثَلاثُ خِصالٍ: صَدَقَةٌ أَجْراها في حَياتِهِ ... وَسُنَّةُ هُدًى سَنَّها ... وَوَلَدٌ صالِحٌ يَسْتَغْفِرُ لَهُ.

العِلمُ بحقيقة الأسماء

استحقاقُ الإنسان الخلافةَ الإلهيّة في الأرض

العلّامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ رحمه الله

آياتٌ أربع (٣٠-٣٣) من سورة البقرة، تَحكي قصّة استخلاف الله تعالى لآدمَ عليه السلام على الأرض، واستحقاقه هذا المقام بما له ولذرّيّته من قابليّة علميّة لا تتوفّر حتّى للملائكة المقرّبين، وقد أضاءَ عليها العلّامة السّيد محمّد حسين الطّباطبائي في تفسيره (الميزان) بما لا مزيدَ عليه، مُنوِّهاً بأنّها على خلاف سائر قصص القرآن الكريم، لم تَرِد إلّا في هذا المحلّ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ البقرة: ٣٠-٣٣.

***

* قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾: إنّ القولَ منه تعالى إيجادُ أمرٍ يدلُّ على المَعنى المقصود. فأمّا في التّكوينيات، فنفسُ الشّيء الذي أوجدَه تعالى وخلَقه هو شيءٌ مخلوقٌ موجود، وهو بعينه قولٌ له تعالى، لدلالته بوجوده على خصوص إرادته سبحانه. فإنّ من المعلوم أنّه إذا أراد شيئاً فقال له كُنْ فكانَ، ليس هناك لفظٌ متوسِّط بينه تعالى وبين الشّيء، وليس هناك غيرُ نفس وجودِ الشّيء، فهو بعينِه مخلوقٌ، وهو بعينه قولُه «كُن»، فقولُه سبحانه في التّكوينيّات نفسُ الفعل وهو الإيجاد، وهو الوجود، وهو نفسُ الشّيء.

وأمّا في غير التّكوينيّات، كمَورد الإنسان مثلاً، فالقولُ منه سبحانه بإيجاده تعالى أمراً يُوجِبُ علماً باطنيّاً في الإنسان بأنْ كذا وكذا، وذلك إمّا بإيجاد صوتٍ عند جسمٍ من الأجسام، أو بنَحوٍ آخر لا نُدركُه، أو لا نُدرِكُ كيفيّة تأثيره في نفس الإنسان [الأنبياء مثلاً]، بحيث يوجَد معه علمٌ في نفسه بأنْ كَذا وكذا.

وكذلك القولُ في قوله تعالى للملائكة أو الشّيطان، لكنْ يختصّ هذان النّوعان وما شابهَهما، لو كان لهما شبيهٌ بخصوصيّة، وهي أنّ الكلامَ والقول المعهود فيما بيننا إنّما هو باستخدام الصّوت، أو الإشارة بضميمة الاعتبار الوضعيّ، الذي يستوجبُه فينا فطرتُنا الحيوانيّة الاجتماعيّة، ومن المعلوم - على ما يُعطيه كلامُه تعالى - أنّ الملَك والشّيطانَ ليس وجودُهما من سِنخ وجودنا الحيوانيّ الاجتماعيّ، وليس في وجودهما هذا التّكامل التّدريجيّ العلميّ الذي يستدعي وضعَ الأمور الاعتباريّة.

ويظهر من ذلك أن ليس فيما بين الملائكة ولا فيما بين الشّياطين هذا النّوعُ من التّفهيم والتّفهّم الذّهنيّ المستخدَم فيه الاعتبارُ اللّغويّ والأصواتُ المؤلَّفة الموضوعة للمعاني، وعلى هذا، فلا يكونُ تحقّقُ القول فيما بينهم أنفسهم نظيرَ تحقُّقه فيما بيننا أفرادَ الإنسان بصدور صوتٍ مؤلّفٍ تأليفاً لفظيّاً وضعيّاً من فمٍ مشقوق ينضمّ إليه أعضاءٌ فعّالةٌ للصّوت من واحدٍ، والتّأثّرُ من ذلك بإحساس أُذُنٍ مشقوقٍ ينضمّ إليها أعضاءٌ آخذةٌ للصّوت المقروعِ من واحدٍ آخر، لكنْ حقيقةُ القول موجودةٌ فيما بين نوعَيهما، بحيث يترتّب عليه أثرُ القول وخاصّتُه: وهو فهمُ المعنى المقصود وإدراكُه، فبَين الملائكة أو الشّياطين قولٌ لا كنَحو قولنا، وكذا بين الله سبحانه وبينَهم قولٌ لا بنحو إيجادِ الصّوت واللّفظ الموضوع وإسماعه لهم.

انطواء الإنسان على سرٍّ، يُتدارَك به أمرُ الفساد

* قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ..﴾ مُشعِرٌ بأنّهم إنّما

فهموا وقوعَ الإفساد وسَفْكِ الدّماء من قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، حيث إنّ الموجودَ الأرضيّ بما أنّه مادّيٌّ مركّبٌ من القوى الغضبيّة والشّهويّة، والدّارُ دارُ التّزاحم، محدودةُ الجهات، وافرةُ المُزاحمات، مُرَكّباتها في معرض الانحلال، وانتظاماتُها وإصلاحاتها في مظنّة الفساد ومصبّ البطلان، لا تتمّ الحياة فيها إلّا بالحياة النّوعيّة، ولا يكمُلُ البقاء فيها إلّا بالاجتماع والتّعاون، فلا تخلو [هذه الدّار] من الفساد وسَفْكِ الدّماء، ففهموا من هناك أنّ الخلافةَ المُرادةَ لا تقعُ في الأرض إلّا بكَثرةٍ من الأفراد، ونظامٍ اجتماعيٍّ بينَهم يُفضي بالنّهاية إلى الفساد والسّفك.

والخلافةُ، وهي قيامُ شيءٍ مقامَ آخر، لا تتِمُّ إلّا بكون الخليفة حاكياً للمستخلِف في جميع شؤونه الوجوديّة، وآثاره، وأحكامه، وتدابيره بما هو مستخلِف، واللهُ سبحانه في وجوده مسمًّى بالأسماء الحسنى، متّصفٌ بالصّفات العليا، من أوصاف الجمال والجلال، منزّهٌ في نفسه عن النّقص، ومقدّسٌ في فعله عن الشّر والفساد جلّت عظَمتُه، والخليفةُ الأرضيّ بما هو كذلك لا يليقُ بالاستخلاف، ولا يَحكي بوجوده المَشوبِ بكلّ نقصٍ وشَينٍ الوجودَ الإلهيّ المقدّس، المنزّهَ عن جميع النّقائص وكلِّ الأعدام، فأينَ التّرابُ وربُّ الأرباب، وهذا الكلام من الملائكة في مقام تعرُّفِ ما جهلوه، واستيضاحِ ما أَشكَل عليهم من أمر هذا الخليفة، وليسَ من الاعتراض والخصومةِ في شيء.

فمُلخَّصُ قَولِهم يعود إلى أنّ جَعْلَ الخلافة إنّما هو لأجل أن يحكيَ الخليفةُ مستخلِفَه، بتسبيحه بحمدِه، وتقديسِه له بوجوده، والأرضيّةُ لا تدَعُهُ يفعلُ ذلك، بل تجرُّهُ إلى الفساد والشّرّ، والغايةُ من هذا الجَعل، وهي التّسبيحُ والتّقديس بالمعنى الذي مرّ من الحكاية، حاصلةٌ بتَسبيحنا بحَمدِك وتقديسِنا لك، فنحن خلفاؤك، أو فاجعلنا خلفاءَ لك، فما فائدةُ جعلِ هذه الخلافة الأرضيّة لك؟ فردَّ اللهُ سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ..﴾. وهذا السّياق، يُشعر:

أوّلاً: بأنّ الخلافةَ المذكورة إنّما كانت خلافةَ الله تعالى لا خلافةَ نوعٍ من الموجود الأرضيّ كانوا في الأرض قبل الانسان وانقرضوا، ثمّ أراد الله تعالى أن يخلفَهم بالإنسان كما احتملَه بعضُ المفسّرين، وذلك لأنّ الجواب الذي أجابَ سبحانه به عنهم - وهو تعليمُ آدمَ الأسماء - لا يناسبُ ذلك، وعلى هذا فالخلافةُ غيرُ مقصورةٍ على شخصِ آدمَ عليه السّلام، بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، ويكون معنى «**تعليم الأسماء**» إيداعَ هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثارُه تدريجاً دائماً، ولو اهتدى إلى السّبيل أمكنَه أن يُخرجَه من القوّةِ إلى الفعل، ويؤيّد عمومَ الخلافة قولُه تعالى: ﴿..إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ ..﴾ الأعراف:٦٩، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ..﴾ يونس:١٤، وقوله تعالى: ﴿..وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ..﴾ النمل: ٦٢.

وثانياً: إنّه سبحانه لم ينفِ عن خليفة الأرض الفسادَ وسَفْكَ الدّماء، ولا كذّبَ الملائكةَ في دعواهم التّسبيحَ والتّقديس، وقرّرهم على ما ادّعوا، بل إنّما أبدى شيئاً آخر، وهو أنّ هناك أمراً لا يقدرُ الملائكةُ على حملِه ولا تتحمّلُه، ويتحمّلُه هذا الخليفةُ الأرضيّ، فإنّه يحكي عن الله سبحانه أمراً، ويتحمّلُ منه سرّاً ليس في وسع الملائكة، ولا محالةَ يتدارك بذلك أمر الفساد وسفْك الدّماء.

الّذين عرَضَهم اللهُ على الملائكة موجوداتٌ عاليةٌ محفوظةٌ عندَه تعالى، أنزلَ اللهُ سبحانه كلَّ اسمٍ في العالَم بخيرها وبركتِها، واشتقّ كلَّ ما في السّماوات والأرض من نورها وبهائها.

القولُ من الله تعالى إيجادُ الشّيء، وفي غير التّكوينيّات قولُه سبحانه هو إيجادُ أمرٍ يُوجِبُ علماً باطنيّاً.

الخليفةُ الأرضيُّ يَحكي عن الله سبحانه أمراً، ويتحمّلُ منه سرّاً تعجزُ الملائكةُ عن تحمُّله.

عِلمُ آدم عليه السلام بـ «حقيقة الأسماء»

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ..﴾، مُشعِرٌ بأنّ هذه الأسماء، أو أنّ مسمّياتِها كانوا موجوداتٍ أحياء، عقلاء، مَحجوبين تحت حجاب الغيب، وأنّ العِلمَ بأسمائهم كان غيرَ نحو العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء، وإلّا كانت الملائكةُ بإنباء آدمَ إيّاهم بها عالمين وصائرين مثل آدم، مساوين معه، ولم يكن في ذلك إكرامٌ لآدم ولا كرامة، حيث علّمَه اللهُ سبحانه أسماء ولم يعلِّمْهم، ولو علّمَهم إيّاها كانوا مثلَ آدم أو أشرفَ منه، ولم يكن في ذلك ما يُقنِعُهم أو يُبطِلُ حجّتَهم، وأيُّ حجّةٍ تتمّ في أن يعلّمَ اللهُ تعالى رجلاً عِلْم اللّغة ثمّ يباهي به ويُتمّ الحجّةَ على ملائكة مُكرَمين ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ الأنبياء:٢٧، بأنّ هذا خليفتي وقابلٌ لكرامتي دونكم؟ ويقول تعالى: أنبئوني باللّغات التي سوف يضعُها الآدميّون بينهم للإفهام والتّفهيم إنْ كنتم صادقين في دَعواكم أو مسألتكم خلافتي؟ على أنّ كمال اللّغة هو المعرفة بمقاصد القلوب، والملائكةُ لا تحتاجُ فيها إلى التّكلّم، وإنّما تتلقّى المقاصدَ من غير واسطة، فلَهم كمالٌ فوق كمال التّكلّم، وبالجملة، فما حصلَ للملائكة من العلم بواسطة إنباء آدم لهم بالأسماء، هو غيرُ ما حصلَ لآدم من حقيقة العلم بالأسماء بتعليمٍ من الله تعالى، فأحدُ الأمرَين كان ممكناً في حقّ الملائكة وفي مقدرتِهم دون الآخر، وآدمُ إنّما استحقّ الخلافةَ الإلهيّة بالعلم بالأسماء دون إنبائها، إذ الملائكةُ إنّما قالوا في مقام الجواب: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ..﴾، فنفوا العلم.

فقد ظهرَ ممّا مرّ أنّ العلمَ بأسماء هؤلاء المسمّيات يجب أن يكون بحيث يكشفُ عن حقائقِهم وأعيان وُجوداتِهم، دون مجرّد ما يتكفّلُه الوضعُ اللّغويّ من إعطاء المفهوم، فهؤلاء المسمّياتُ المعلومة حقائقُ خارجيّةٌ، ووجوداتٌ عينيّة، وهي مع ذلك مستورةٌ تحت ستر الغيب، غيبِ السّماوات والأرض، والعلمُ بها على ما هي عليها كان أوّلاً ميسوراً ممكناً لموجودٍ أرضيٍّ لا ملَكٍ سماويّ، وثانياً: دخيلاً في الخلافة الإلهيّة.

وإذا تأمّلتَ هذه الجهات، أعني عموم الأسماء وكونَ مسمّياتها أُولي حياةٍ وعلم، وكونَها غيبَ السّماوات والأرض، قضيتَ بانطباقها بالضّرورة على ما أُشيرَ إليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحجر:٢١، حيث أخبرَ سبحانه بأنّ كلّ ما يقعُ عليه اسمُ شيءٍ فلَه عنده تعالى خزائنُ مخزونة، باقيةٌ عنده غير نافدة، ولا مقدّرة بقدر، ولا محدودة بحدّ، وأنّ القَدْر والحدّ في مرتبة الإنزال والخَلق، وأنّ الكثرة التي في هذه الخزائن ليست من جنس الكثرة العدديّة الملازمة للتّقدير والتّحديد، بل تعدُّد المراتب والدّرجات..

فتحصّل أنّ هؤلاء الذين عرَضَهم اللهُ على الملائكة موجوداتٌ عاليةٌ محفوظةٌ عندَه تعالى، محجوبةٌ بحُجُبِ الغَيب، أنزلَ اللهُ سبحانه كلَّ اسمٍ في العالَم بخيرها وبركتِها، واشتقّ كلَّ ما في السّماوات والأرض من نورها وبهائها، وأنّهم على كَثرتهم وتعدُّدهم لا يتعدّدون تعدّدَ الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوتَ الأشخاص، وإنّما يدور الأمرُ هنا كمدار المَراتب والدّرجات، ونزولُ الاسم من عند هؤلاء إنّما هو بهذا القِسم من النّزول.

(مختصَر عن الجزئين الأوّل والثّاني)